تقديم :

لقد كان الخوارج الصفرية الأسبق في تأسيس دولتهم منتصف القرن الثاني للهجرة، ولكن المعلومات حول دولتهم قليلة مقارنة بالدول الأخرى التي عاصرتها، ويمكن الاشارة هنا إلى أن هؤلاء استغلوا الاضطرابات السياسية بالمغرب واعلنوا قيام دولتهم سنة 140 هـ / 757 م، واختاروا منطقة بعيدة عن القيروان وهي سجلماسة جنوب المغرب الاقصى[1]، التي تتوسط الصحاري الجنوبية للمغرب الاقصى .

أولا ـ نشأة الدولة :

لقد كان لقبيلة مكناسة البترية الدور الأبرز في قيام دولة بني مدرار، فهي العصب الذي جعل الدولة تقوم، يضاف إليها عناصر من صنهاجة وزويلة وزناتة وأهل الربض من الاندلس، وعناصر من الزنوج السودان الذين اعتنقوا المذهب الصفري على يد أبو القاسم سمكو بن واسول، وكانوا يقيمون بتافلالت[2]، وكان لأبي القاسم دور كبير في بث المذهب الصفري في المناطق الجنوبية، بحيث قصد تافلالت وعلى الخصوص أهل البادية والحواضر الذين كانوا يمتهنون الرعي والزراعة والتجارة، كما أنه شاع عنهم حب العلم والتدين وكانوا شديدي الباس والنجدة في المعارك[3].

كان أول نزول لأبي القاسم بالمغرب الأقصى صحراء تافلالت سنة 138 هـ / 755 م وكان يمتهن الرعي، وأخذ يتصل بالرعاة في المنطقة، فتوافدوا عليه يقُطعانهم وأخذ يعلمهم المذهب الصفري، وضرب خيمته بتلك الصحراء، فكثر الوافدون عليه ونصبوا خيامهم حوله كما تذكر المصادر، ولما وصلت سنة 140 هـ / 757 م بايعه حوالي أربعين رجلا بالإمامة[4]، ولما تمت له البيعة اختار عيسى بن يزيد الاسود وبايعه بالإمامة، وحمل الناس على طاعته، وكان عيسى من موالي العرب، كما انصاعت مكناسة لبيعة عيسى بأمر من أبي القاسم[5].

---

[1] سجلماسة، مدينة على نهر يقال له زيز وليس بها عين ولا بئر وبينها وبين البحر عدة مراحل وأهل سجلماسة أخلاط والغالب، عليها البربر وأكثرهم صنهاجة وزرعهم الدخن والذرى، وزرعهم على الأمطار لقلة المياه ...، أنظر، أحمد بن أبي يعقوب اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح الشهير باليعقوبي، البلدان ، ط 1، تحقيق، محمد أمين ضناوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1422 هـ / 2002 م، ص 198 .

[2] البكري، المصدر السابق، ص 149 .

[3] مجهول، الاستبصار ...، ص 201 وما بعدها .

[4] البكري، المصدر السابق، ص 149 .

[5] ابن خلدون، تاريخ ...، ج 6 ، ص 171 .

كان اختيار أبي القاسم لعيسى الأسود استراتيجية حتمتها الظروف، نظرا لغلبة العنصر الأسود على تافلالت والمنطقة ككل، لأن سابقة الإنتماء إلى المذهب كانت لأبي القاسم، حتى أن عصبية أبي القاسم وهي مكناسة لم تكن قد انتقلت بعد إلى سجلماسة كم ذكر ابن خلدون[1]، وعلى أية حال فبعد تمام البيعة لعيسى تم اختطاط سجلماسة في السنة المذكورة سابقا، فأضحت دارًا للإمارة ومنزلا لمُعتنقي المذهب الصفري من كل الأنحاء[2].

كما هو حال كل المدن في العصر الوسيط فقد حرص الصفرية على تأمين المدينة حيث أقاموها وسط الصحراء بعيدا عن الأخطار، وأسسوا المسجد الجامع ودار الإمارة، وتتابع الناس في بناء دورهم[3]، فاتسع العمران، وكان للأندلسيين دور كبير في عمران المدينة مع طائفة اليهود الذين استقروا بها لاهتمامهم بالمعادن النفيسة كالتبر[4]، ولحماية المدينة أسس اليسع بن مدرار سورها سنة 208 هـ/ 823 م، وقد ذكر صاحب الاستبصار أن بها اثنا عشر بابا منها باب زناتة وباب الغدير وباب الجزارين وغيرها من الأبواب[5]، ووصفها ابن حوقل بجميل الوصف لما ذكر أن أبنيتها أبنيتها شاهقة كأبنية الكوفة بالعراق، بل إن أهل العراق كانوا قد سكنوا سجلماسة لممارسة التجارة بها[6].

عمل عيسى بن يزيد على تنظيم أمور سجلماسة، فنظم أُمور السقي واستكثر من غراسة شجر النخيل[7]، وأضحت المدينة مستقرا للناس الذين انتقلوا من حياة البداوة البسيطة الى ممارسة الزراعة الزراعة والتجارة، فقد اشتهرت بشتى المزروعات وعلى أنواع الفاكهة كما ذكر البكري[8]، وبفضل هذا هذا أصبحت المدينة عمود المغرب الأقصى في العصر الوسيط خاصة الجانب التجاري، وأضحى

---

[1] ابن خلدون، تاريخ ...، ج 6 ، ص 172 .

[2] محمد بن أحمد المقدسي، رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط 1، تحقيق، شاكر لعيبي، دار السويدي للنشر، الإمارات، 2003 م، ص 209 .

[3] مجهول، الاستبصار...، ص 201 .

[4] نفسه ، ص 202 .

[5] نفسه ، ص 201 .

[6] ابن حوقل، المصدر السابق، ص 65 .

[7] ابن الخطيب، المصدر السابق، ج 3، ص 139 .

[8] البكري، المصدر السابق، ص 148 .

أهلها مياسير أغنياء وأرباحهم وقوافلهم غير منقطعة قلما يدانيها التجار في بلاد الإسلام من سعة الحال[1].

ثانيا ــ انتقال الإمامة إلى أبي القاسم سمكو بن واسول المكناسي :

عادت الإمامة لأبي القاسم سمكو بن واسول المكناسي في ظروف غامظة حيث نقم الصفرية على عيسى وأُتهم بالسرقة كما ذكر البكري، حيث شدو وثاقه الى جذع شجرة وطلوه بالعسل حتى أكله البعوض فقضى نحبه[2]، وربما كان هذا الإجراء للحظوة التي أضحى عليها أبو القاسم من انضمام الكثير من أهل مكناسة إليه وبذلك أراد أبو القاسم كسر شوكة السودان بتنحية زعيمهم عن السلطة لأن في ذلك خطر على مستقبله على الحكم وأبنائه فيما بعد، وهكذا تم إزاحة عيسى عن الحكم بعد خمسة عشر من تنصيبه إماما للصفرية.

آلت إمامة الصفرية في سجلماسة إلى أبي القاسم سنة 155 – 168 هـ / 772 – 784 م[3] ، ، واتقاءً لخطر العباسيين فقد خطب للمنصور والمهدي من خلفاء بني العباس، خاصة وأن الفترة التي نتحدث عنها شهدت غليانا على جبهة افريقية وطرابلس، حيث نكل وُلاة بني العباس بالخوارج في هذه المنطقة، وبذلك استطاع أبو القاسم أن يُوطد الحكم للصفرية في منطقة سجلماسة .

ثالثا ـ خلفاء أبي القاسم على سجلماسة :

كان أبو القاسم من كبار علماء الصفرية ، وقد كانت له أعمال جليلة في سجلماسة، ويعود له الفضل بعد عيسى في تعمير سجلماسة وإحاطتها بسور خارجي، وتنظيم أمور الدولة المالية والإدارية، وحِفظ الأمن، مما كان له دور في ازدهار حركة التجارة[4]، لكن لم يطل عهده إذ توفي سنة 167 هـ / 783 م، وتولى الإمامة بعده ابنه المُلقب بالوزير آخر سنة 199 هـ/ 814 م واستمر في الحكم مدة ستة أشهر، لكن هذا الأخير تعرض لمؤامرة من طرف أخيه اليسع بمُعاونةٍ من بعض الخوارج الصفرية[5].

---

[1] ابن حوقل، المصدر السابق، ص 65 .

[2] البكري، المصدر السابق، ص ص 149 – 150 .

[3] ابن عذاري، البيان ...، ج 1 ، ص 215 .

[4] سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب العربي ، تاريخ دولة الأغالبة و الرُستميين وبنو مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين، ج 2 ، منشأة المعارف، الإسكندرية، ص 413 .

[5] ابن الخطيب، أعمال...، ج 3 ، ص 142 .

نجح اليسع في إزاحة أخيه عن الحكم وتولى الإمامة، وتلقب بأبي المنصور، واستطاع بفضل حنكته ودهائه أن يتصدى لكل الأخطار الداخلية والخارجية[1]، وكانت له إصلاحات عمرانية حيث شيد سور سجلماسة أحسن تشييد واهتم ببناء القصور وخزانات المياه، كما اهتم بالجانب الاقتصادي واهتم بالجيش لحماية الدولة وقت الحاجة[2]، ولتوطيد العلاقات بينه وبين جيرانه فقد زوج ابنه من ابنة عبد الرحمان بن رستم، فكانت هذه المصاهرة رباطا قويا وثق عُرى العلاقة بين الدولتين بِالوُد والمحبة[3].

توفي اليسع سنة 208 هـ/ 823 م ، وخلفه على الإمامة إبنه مدرار الملقب بالمنتصر، الذي نهض بسجلماسة، فعمها الهدوء والاستقرار إلى أن تصارع ولداه "الميمونان" على الحكم لمدة ثلاث سنوات، ووقف الوالد موقف المُتفرج لأنه كان شيخا مُسنا ما صعب عليه التحكم في المشاكل بينهما، ولأن المنتصر اختار لإمامة سجلماسة ميمونًا ابن الرستمية، حيث كانت هذه الأخيرة ذات نفوذ في الدولة[4]، ولم يتوقف ميمون ابن الرستمية بل أقدم على نفي أخيه ميمون ابن التقية الى خارج سجلماسة، كما عزل والده مدرار عن الحكم وأخرجة مع والدته من سجلماسة الى درعة[5].

لم يكن ميمون بن الرستمية محل رضى من طرف أهل سجلماسة، ولأنه لم يكن محمود السيرة، فبادروا إلى خلعه، وإعادة ميمون ابن التقية إماما عليهم هذا الأخير الذي لم يشأ مناوئة أبيه الإمامة ، وبذلك عاد مدرار الى الإمامة[6]، وأحضر معه من أطاعه ودخل في حزبه من أهل درعة درعة ، هذا الأمر جعل أهل سجلماسة يعزلونه من الإمامة ويُولون ابنه ميمون ابن التقية على الحكم، ولم يلبث أن توفي مدرار في خلال فترة حكم ابنه سنة 253 هـ/ 867 م، أما ميمون بن

---

[1] سعد زغلول، المرجع السابق، ص 413 .

[2] ابن الخطيب، أعمال ...، ج 3، ص 142 .

[3] أبو هريرة عبد الله محمد يعقوب، مظاهر الحضارة في سجلماسة في عهد إمامة بني واسول الصفرية (140 – 366 هـ / 757 – 978 م)، رسالة ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية الآداب، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أم درمان الإسلامية، 1414 هـ / 1994 م، ص 50.

[4] السيدعبد العزيز سالم، تاريخ المغرب في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999 م، ص 502 .

[5] أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثر، الكامل في التاريخ، ط 1 ، مج 6 ، تحقيق، محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، 1407 هـ / 1987 م، ص 59 .

[6] ابن عذاري، البيان ...، ج 1 ، ص 157 .

التقية فقد كرس معظم سنوات حكمه في محاربة أنصار أخيه إلى حين وفاته سنة 263 هـ/ 876 م[1] .

تولى الإمامة بعد ميمون إبانه محمد الذي حاول إصلاح ما أفسده الميمونان (أبيه مع عمه)، لكن دون جدوى، فمبدأ توريث الحكم الخارج عن القاعدة المألوفة لدى الخوارج، جعل أهل سجلماسة في حالة ثورة دائمة، إضافة الى أنه كان إباضيا كما ذكر ابن خلدون، ولم يلبث أن توفي سنة 270 هـ/ 883 م[2].

كانت السنوات الأخيرة من عمر الدولة المدرارية عسيرة، خاصة بعد تسلل الشيعة الى بلاد المغرب، فقد حاول خليفة محمد، وهو اليسع بن المنتصر بن اليسع بن مدرار إصلاح الأمور في سجلماسة وتهدئة الأوضاع بها، وكان قد عول على غزو مطغرة، لكن عبيد الله الشيعي عاجله وتغلب عليه وقتله وملك المدينة في ذي الحجة سنة 297 هـ / 909 م، وجعل على المدينة عامله ابراهيم بن غالب المزابي ، لكن بعد خمسين يوما ثار عليه أهل سجلماسة وبايعوا الفتح بن مدرار الملقب بالرسول، هذا الأخير الذي أقدم على قتل عامل الفاطميين[3].

تعتبر السنة المذكورة سابقا النهاية الفعلية لدولة بني مدرار على يد العبيديين، فمنذ هذا التاريخ أضحى أمر الامامة متذبذبا تارة بالثورة على هذا الامام وتارة بتدخل العبيديين في تعيينه، فقد تولى الامامة أبو العباس أحمد بن الأمير ميمون بن مدرار، ولما سمع الشيعي بالأمر وجه إليه عامله مصالة بن حبوس الذي حاصر المدينة وقتل الامام أبي العباس وبعث برأسه إلى القيروان، وكان ذلك في محرم سنة 309 هـ / 921 م[4].

تولى أمر سجلماسة بعد أبي العباس المعتز بن محمد بن ساور بن مدرار، حيث أقام بها داعيا للشيعة إلى أن توفي سنة 321 هـ / 933 م، وتولى بعده إبنه محمد الإمامة بأمر من الشيعي إلى أن توفي سنة 331 هـ / 942 م، وآلت الإمامة الى سمغون (المنتصر) ابن المعتز بن ساور بن محمد مدرار وكان صغيرًا في السن، حيث كانت جدته تتولى أمر الإمامة إلى أن قام عليه إبن عمه محمد بن الفتح بن الأمير ميمون بن مدرار الملقب بالشاكر لله[5].

---

[1] ابن خلدون، ديوان ...، مج 6، ص 173 .

[2] ابن خلدون، ديوان ...، مج 6، ص 173 .

[3] ابن الخطيب ، أعمال...، ج 3 ، ص 145 .

[4] نفسه ، ص 146 .

[5] نفسه، ص 147 .

قطع الشاكر لله الدعوة الفاطمية ودعى لنفسه وتسمى بأمير المؤمنين، وأظهر العدل وحسن السيرة، فاغتاظ الخليفة العبيدي المعز لدين الله وأرسل اليه قائده جوهر الصقلي حيث حاصره في سجلماسة لكن الشاكر تمكن من الفرار عنها الى حصن "تاسجدلت"[1]، وتمكن جوهر من سجلماسة سنة 349 هـ / 960 م، أما الشاكر فقد حاول العودة الى سجلماسة فغدر به قوم من مطغرة وقبضوا عليه وسلموه الى جوهر الذي بدوره وضعه في قفص من خشب وأرسله الى رقادة فطيف به هناك، ومكث في السجن الى أن توفي سنة 354 هـ/ 965 م[2].

[1] تاسجدلت، حصن منيع على بعد اثني عشر ميلا من سجلماسة، أنظر ، البكري، المصدر السابق، ص 151 .

[2] البكري، المصدر السابق، ص 151 ، أنظر أيضا، ابن الخطيب، أعمال ...، ج 3 ، ص ص 148 – 149 .